الإبداع الفنى

فى "نقر العصافير"

أ . محمد فهمى سند

هاهى ذى النجوم تتساقط وتنطفئ مشاعل الإبداع واحدة تلو الأخرى تاركة ألم الفراق ، ولوعة الفقد ، وإبداعاً يظلّ يضىء ما بقى عشاقٌ للكلمة المرهفة الشاعرة ، وأجيال تنبض بالوفاء لأساتذة أعطوا حياتهم للفن والشعر .

ومن بين حبات العقد التى تتساقط كان الشاعر الكبير المرحوم « أحمد قنديل » الذى رحل .. وترك عصافيره تنقر فى عقل الجيل الصاعد ، مخُلّفاً عشًا جميلا أخرجته للوجود « دار تهامة » للنشر: ليكون بيتاً للحب ، ومكاناً دافئا للعصافير الزّغب ، تمرح فيه تلتقط الحبّ والحُبّ ، فى تناغم أخّاذ ، وإيقاع رائع ، تتعانق فيه الصور مع الفكرة فى سلاسة وبساطة ، تتمحور جميع القصائد حول الرغبة فى الحياة والتشبث بها ، رغم زحف الموت البطىء ، الذى يتسلّل عبر الثوانى والدقائق والساعات والأيام ، ثم ينتفض فجأة ملتقطاً النّاى العازف للكون ، ومُسكتاً قيثارة الحياة ، تاركاً العشّ والعصافير الصغيرة تجالد العواصف ، والأعداء ، متحسّسة أعواد القشّ ، ودفء النبض الذى سكت ، تجادل النغمات الشاردة عن عازفها الذى مضى .. متأسّية بالحياة الثريّة التى أضافت وضحّت قبل أن تمضى .

ولست هنا فى هذه الدراسة ناقداً بقدر ما أنا عاشق ومحبّ لهذا الشعر الذى بين يدىّ ، الشعر الذى احتوانى واجتذبنى من همومى الكثيرة فأحال أيامى أثناء القراءة حياة نابضة ومترعة بكل ما هو جميل وشريف ورائع !! وهل أجمل من معايشة الكلمة الشاعرة ؟! .

ولذا فلا أملك هنا إلاّ أن أصرّح بحبّى لهذا الشاعر الذى لم ألتق به ، ولم أقرأ له الكثير من قبل ، فوجب علىّ أن أعرض لهذا الديوان بالدراسة المتأنية ، محاولاً كشف أوجه الجمال والإبداع فيه ليكون تحية لذكرى الشاعر ، واعترافا من شاعر بإبداع شاعر آخر ، كان له ـ وسيظل ـ فضلٌ على الشعر العربى بإبداعه هذا الديوان .

التجربة الأساسية فى الديوان هى « التجربة العاطفية » وهى تجربةٌ شموليةٌ تبدأ من الخاص وتنتهى بالعام ، تُفتتح بالغناء للمحبوبة المحدَّدة ، وتُختتم بالغناء للمحبوبة الأكثر شمولية ، ومعظم التجارب يتجاذبها هذا الصراع الثنائى بين الوله والكبرياء ، بين الرغبة فى الحياة والإحساس بالموت ، صراع أبدىّ .. ينتصر فيه دائما الحب والوله والعشق والهيام بروابطه القوية وحباله السرّية التى تنقل أغذية الحب من أنهار الحياة وتصل دائما بين العاشقين على الكره والبغض والسخط :

لهواك أنت .. وأنت أغلى الناس عندى
سأعيش .. أحيا الحبَّ .. فى وصل وصدّ
أنا لن أخونك .. كيفما ضيَّعت عهدى
أنا لا أزال .. ولن يزال هواك قصدى (١)

ولقد جاءت قصائد الديوان ـ وهى ستون قصيدة ـ مُقسَّمة إلى أربعة أقسام وضع الشاعر لكل قسم عنوانا خاصا . القسم الأول جاء بعنوان « نقر العصافير » ويضم هذا القسم خمس عشرة قصيدة .

والقسم الثانى بعنوان : « مع الناس .. أخذٌ وعطاء » ويضم سبعا وعشرين قصيدة والقسم الثالث بعنوان : « فراشات وأحلام وأطياف » ويضم اثنتى عشرة قصيدة : ولكنها جميعا تدور حول الصراع الثنائى بين النقيضين : بين الشباب والكهولة ، بين الحب والبغض ، بين الأمل والألم ، بين الانفتاح والانغلاق ، بين الخير والشرّ ، بين الإصلاح والهدم .. رغم اختلاف الأشكال وتباين المضامين .. اعتمد الشاعر على إبراز ذلك كله بالصورة ، واستغلال أسلوب القصّ والحكى والسرد بالغنائية الشفّافة واستعمال الرَّمزية والتراثيَّة .

والشاعر « احمد قنديل » فى كل قصيدة بروحه المفعمة بالأمل والألم ملتزماً الشكل الخليلىّ الثابت .. لم ينجرف إلى شعر التّفعيلة الواحدة ، أو ما يسمى بالشعر الحديث .. وإن كانت بعض

القصائد قد تأثرت بالشعر المهجرى فى شكلها وبالموشحات فى الموضوعات الغنائية التى تحتاج هذا القالب بالذات . وسنزيد هذه النقطة توضيحا حين نتحدث عن الصياغة الفنية .. والأسلوب والصورة .

أمّا الآن فلندخل إلى فكره .. وعاطفته من قصيدة « قطرات » التى تعتبر المدخل الحقيقى لحياة الشاعر وفكره وعاطفته ، وحياته المفعمة بالرغبْة والأمل فى أن يحُلق الطائر بشعره فى نور الكون ، تاركاً العنان لهذه الحياة يقذفها التّيار ، وتلعب بها الأمواج ، باحثا عن لحظة المعاناة التى تصهره وتشكله ألواناً ، وتعصره قطرات تذوب فى بحر العمر المتلاطم :

فى السماوات حلَقتْ بجناحين كتابى والشعر .. فرحة عمرى
فتنة تشبه الفراشات حيرى وسناً راقص الضياء بفكرى
ألفتْ فى الحياة بينهما الأمس وفى اليوم .. شعلة الفن تسرى
بين ماض مُدثَّرٍ بالأمانى قد توارت وحاضر متعرّى
لا أعيش العيش الرَّتيب تمطًّى أو تغطًّى ما بين صرٍّ وقرّ
بل لأحيا نهْبَ المعاناة لوناً وشكولا ما بين حرٍّ وقرّ
تلك إن شئت أو أبيت حياتى قطراتٌ تذوب فى بحر دهرى
مثلها .. مثلها كثيرٌ اذا عُدّ قليل فى القصد عند التحرّى
هذه صفحتى القصيرة يا صا ح وكونى فى الكون لاح بسطر
أنا منها .. بها .. شقىٌ سعيد فى الصحارى أو فوق لُجَّةِ بحر

بهذه الانطلاقة ، تتضح حياة الشاعر الباحث دائما عن لحظة معاناة ينصهر فيها وبها ، ليعزف على قيثارة الألم أنشودته الذهبية . متأرجحاً دائما بين شيئين كما قلت : بين العاطفة المتأججة والعاطفة المتجمدة ، يحيا ألواناً وأشكالاً ، بين إقبال على الحياة بكل ما فيها وبين فرار منها خوفاً من لحظات الجفاف : فالحياة كما يعبر الشاعر « احمد قنديل » عنها هى قطرات تذوب فى بحر الدهر : فهو من الحياة وبها مشبوح بين الشقاء والسعادة . تائه فى الصحراء أو ضائع فوق لجّة البحر .

ورغم هذه الرغبة العارمة فى الحياة والبحث فيها عن لحظات المعاناة التى يشعر من خلالها بذاته وبقوته ، إلا أن الشاعر فى معظم الديوان كان يطارده شبح الكهولة والإحساس بالضعف . ويظل يبحث عن روافد لنهر حياته الذى أوشك على الجفاف ، ترفده بقوة الشباب وعنفوانه . والنهر الحقيقى الذى كان يمدُّ الشاعر بالحيوية وقوة النبض والإحساس بالشباب هو الحب !! الحب بكل ما فيه من لوعة واحتراق وألم ودموع ، وتوهج وانصهار :

أعرني من شبابك يا حبيبى   حياة أستعيد بها شبابى
فما فنيتْ دوافعه بقلبى   ولا برحت نوازعه صوابى
وإنى رغم أحداث الليالى   جديد العمر موصول الرِّغاب
ولكنّى بدونك بعض ذكرى   وفضل صبابة وصدى عذاب(٢)

والأمثلة على ذلك كثيرة .. وكثرتها تؤكد غرام الشاعر بالحياة . وهل الحياة بدون حب تسمى حياة ؟ !

وعائدةٍ بالقلب نحو شبابه   حياةً وأحلاماً وحبًّا ومأملا
أدمتُ إليها الطرف ريّان بالهوى   ظمينًا إلى ما جفّ منه وأمحلا

ويظل منطلقا فى القصيدة بانسيابية رائعة ، وبعواطف جيّاشة ، محاورا هذه المعشوقة العائدة من رحلة الهجر والصّد ، حتى يقول فى نهاية القصيدة :

تعزّ .. تصبّرْ بعدنا .. ربَّ ليلة   تجىء .. فتلقانا ونلقاك أولا (٣)

لا تكتمل أبداً لحظة الحب الموصول : ولكنها الثنائية التى تشاطر العواطف كلها عند « احمد قنديل » فلحظة الوصل تهدّدها لحظة الهجر ، والحياة يهدّدها الموت ، والشباب تهدده الكهولة ، والأمل يهدده الألم ، .. وهكذا .. وإن كان الشاعر دائما يتشبّث بشيئين فى منتهى الأهمية للانتصار على الجدب والكهولة والألم والهجر والضعف والخوف هما : الشّعر والحب : فالشعر هو السلاح الذى يشعر من خلال التسلح به أنه قوىٌ وأنّه ما زال يستلهم الكون والوجود والأشياء أعظم ما فيها من أنغام .

والحب هو الدليل العملىّ على صحوة القلب ، وحياة الشعور ، إنّ الحب عند الشاعر « احمد قنديل » هو أعظم ما منح الانسان من عطايا من رب هذا الوجود ، فكل كائن حىّ محبّ ، فإذا تلاشى هذا الحب لحظة كانت تلك اللحظة فى عالم آخر غير عالم الأحياء ، واذا فقد الانسان القدرة على الحب فقد أصبح جثة تتحرك وقبرا يبحث عن ذبابة خضراء تطن فوقه لتؤكد أنه قبر !!

وغرام شاعرنا « احمد قنديل » بالحياة جعله حين يلتقط خيط التجربة الشعرية ينطلق منسابا كنهر ، لا يأبه بشىء غير المضىّ فى لحظته الشعرية المتوهجة ، لا يأبه بدقّة الصياغة فى بعض الأحيان ، ولا يتحسس النّغمات العروضيّة التى تفلت فى هذه الانطلاقة ، والكلمات المختارة للتجربة قد تخلخل الوزن ، ولكن الشاعر لا يحب أن يراجع الوزن حتى لا يغير اللفظة التى عبّرت بدقّة عن صدق مشاعره .

فمثلا يكررُ كلمة « التعذيب » فى قصيدة « الأمس واليوم » فى نهاية البيت السابع، والقصيدة بائية ، وهى قصيدة رائعة ، ولكنه يكرر نفس الكلمة فى البيت التاسع .. وهذا مما يأباه العروضيون : أن تتكرر القافية قبل سبعة أبيات على الأقل .

وبحر « الرمل » يأتى تامًا ومجزوءا : ولكنه فى قصيدة « والتقينا » أتى ببيت فى داخل القصيدة ـ وهى من مجزوء الرمل ـ مشطورا .. أى ثلاث تفعيلات فقط .. والقصيدة كلها من المجزوء كما قلت أى أربع تفعيلات .

غرَدا للحب لحناً من أحاديث هوانا
واستعاداه حنينا وأعاداه حنانا
حين هزَّت خفقات القلب منًّا شفتانا
هكذا عاشت وعشناها كلانا ...

فالبيت الرابع ثلاث تفعيلات فقط ، مما يؤكد أن الشاعر إذا اكتملت عنده الصورة وتم المعنى ، لا يأبه بعد ذلك باستكمال تفعيلات البيت .

وفى نفس القصيدة يقول :

صورةً تروى حكايا الحبّ أناً ثم آنا
فتنة نشوى وظلاً وأمانا

أى يأتى ببيت مجزوء ثم ببيت مشطور يليه . كما قلت .. وهذا مما يرفضه العروضيون . وفى قصيدة « أنا من أكون » كسر عروضى أيضا فى البيت :

بينى وبين العصر عصرك جيلٌ قرون

والقصيدة من بحر الكامل ، والكسر واضح فى الكلمتين الأخيرتين : جيلٌ قرون .

وفى قصيدة « الأصفاد » وهى من الكامل أيضا كسر عروضى فى قوله :

أمسى بمشاك المهين ... بها دفين

والنون الأولى فى الشطر الأول ساكنة لتكون قافية كالبيتين اللّذين قبلهما .. ولذا لو بقيت جملة « بها دفين » كتفعيلة خاصة تكون مكسورة عروضيا : ولكن لو حركت النون الساكنة واتصلت بجملة بها دفين .. لاستوى الوزن .

وفى قصيدة « وداع » يلجأ الى منع صرف المصروف .. وإدخال « كما » على الاسم وذلك نادر فى العربية : لأن الاستعمالات الفصيحة فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف والشعر الجاهلى والاسلامى والعباسى .. لا نجد هذا الاستعمال لأن « كما » تدخل على الفعل :

وشدا بها الشادى يصوغ اللحن   نارَ كما الشعاع (هكذا)

وفى قصيدة « ذات السارى » يقول فيها :

صادفتها .. يا حسنها لحظة   صادفتها فيها لدى المصعد
قد ضمُنا دنيا التقينا بها   ما فوق دنيا الناس للفرقد

دون تأنيث الفعل ضمُنا لأن الفاعل هو دنيا والدنيا مؤنثة .

هذه أمثلة على تعجُّل الشاعر وعدم تأنيه ونظره فى الشعر بعد كتابته للمراجعة وتصحيح ما يحتاج إلى ذلك . لأن المهم عنده هو الفكرة والدفعة الشعورية التى ما إن يقبض عليها حتى يصبها فى أىّ قالب وبأىّ ألفاظ تؤدى ما يحسُّه . وأرجو عند إعادة طبع هذه المجموعة أن تراجع وتصحح مثل هذه الهنات حتى تخرج المجموعة لائقة باسم الشاعر الراحل « احمد قنديل » .

ولنتحدث الآن عن الصياغة الفنية والموضوعات والصور الشعرية بإيجاز مركزين ذلك فى نقاط محدَّدة : لأنَّا قد تعرَّضنا فى سياق الحديث السابق لبعض الملامح الفنية .

أولا : الشاعر« احمد قنديل » له قاموسه الشعرى الخاص به . أي هناك كلمات أثيرة لديه يكرِّر استعمالها كثيرا فى قصائده مثل : الحياة ـ الأيام ـ الأحلام ـ الدنيا ـ الوجد ـ الحب ـ الموت ـ السراب ـ الأمس ـ الهوى ـ الكلمات ـ القلم ـ الشباب ـ القلب ـ العمر ـ الصبابة ـ فجر الصبا ـ الذكريات ـ الأمانى ـ الزهور ـ العصافير ـ الصبا ـ الألحان ـ الهجر ـ المشيب .. وهكذا .

نجد أن هذه الكلمات ومشتقاتها وأضدادها كلمات أثيرة لقلب الشاعر . نكاد نجدها فى كل قصيدة .. يختارها ليركب منها صوره ..

ثانيا : والصورة لديه دائما واضحة .. وضوح الفكرة .. لا تعتيم فيها ولا غرابة بل صور قريبة من قلب الجميع .. تتشكل دائما لتؤدى دورها التوضيحى والتكثيفى لدى شاعر يعرف قدرته وطريقه لقلب المتلقى .. فينفذ دائما إلى القلب دون مرور على الحواس الأخرى مثل السمع والبصر : لأن قصائد الشاعر تحمل دائما هموما عاطفية .. يشترك فيها معظم البشر ..

ثالثا : لم يلجأ إلى الكنايات والمجازات والاستعارات البعيدة الملغزة : لأن موضوعاته ـ كما قلت ـ قريبة من الانسان العادى . وهو لا يحمل أفكارا كبيرة فلسفية ولا مشكلات كونية إلاّ نادراً . وحين

يتعرّض لها بعرضها من جانبها الواضح السهل الذى لا يفقدها شاعريتها .

سألتنى عن الحياة بنوها   كيف مرَّت أيامنا من قديم ؟!
وأنا الشاعر المعبِّر عنها   بنشير مستعذب ونظيم
بحياة مرَّتْ كأحلام صيف   أو كلفح من زمهرير مقيم
فانثنى فى يدى اليراع وحارت   بين رأسى معارفى وفهومى

رغم قساوة السؤال واتّساعه .. جاء الجواب بسيطا وهادئاً : لأنَّ الشاعر كما قلت لم يشأ أن يخاطب طبقة خاصة ، بل يتحسّس جراح الجميع فى هدوء واتّزان ووضوح .. وهكذا كان الشاعر الراحل « احمد قنديل » قلباً كبيراً متدفقاً بالرغبة فى الحياة . لم يدع أيامه تقلّبه بين الهموم الفلسفية ولا تحيّره أمام مشكلات الكون التى يطرحها السفسطائيون .. لأن الدين الإسلامى قد غرس فى قلب المسلم اليقين والرضا والإيمان بقضاء الله وقدره ، وأبعد عن عقله تلك المشكلات التى حارت البرية فيها دون إجابة شافية .

هذه السياحة البسيطة فى ديوان « نقر العصافير » مُتعة فنيّة رائعة ، لعلّنا قد ألقينا الأضواء على شعر الشاعر الراحل « احمد قنديل » الذى يستحق دراسة أخرى،بل دراسات كثيرة تلقى الضوء على شعره ، وتعطيه حقّه كشاعر كبير .

● الهوامش ●

(١)من قصيدة « حياة الحب » ص ١٠ .

(٢) قصيدة « أعزنى من شبابك » ص ٩ .

(٣) من قصيدة « عائدة » ص ١٤ .